International Refereed Journal of Language & Culture
Jun 2021, Vol. (6), No. (1)
ISSN: 2180-0006

المجلة العلمية للغة والثقافة
يونيو 2021، المجلد (6)، العدد (1)

نحو تفسير نصي: قراءة تأويلية في أم الكتاب

Towards a Textual Interpretation: An Interpretive Reading in Umm al-Kitab

الدكتور محمد أقين
عضو هيئة التدريس في كلية الإلهيات، بجامعة أنقرة، تركيا
الدكتور عبد الصمد ورلي
عضو هيئة التدريس في كلية الإلهيات، بجامعة بابيورت، تركيا
الدكتور يوسف توبياي
عضو هيئة التدريس في كلية الإلهيات، بجامعة بابيورت، تركيا

ملخص البحث:
إن سورة الفاتحة أو أم الكتاب من السور التى أبدع كثير من المفسرين فى[i] الإبحار فيها تفسيرًا وتوضيحًا لإعجازها، سواء كان تفسيرها ضمن تفسير القرآن الكريم كله، (أم) تفسيرها وحدها. وتهدف هذه القراءة إلى وقفة تأملية مع هذه السورة، في محاولة للتفتيش عن جواهر مدلولاتها، وسوف يتبع هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، مبتعدا عن استخدام مناهج لغوية شتى، مثل البنيوية والسيميولوجية والأسلوبية والتلقي ... وغير هذه المناهج، التي تركز جهودها على الخطاب اللغوي والمتلقي ويأمل البحث أن يصل إلى النتائج التي يرنو إليها، ومن بينها توضيح بعض معالم هذه السورة التي وصفها الله في كتابه بقوله: (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) [الحجر:87]. وسوف نحاول توضيح المعاني والدلالات، والأسرار اللغوية والبلاغية التي تشتمل عليها أم الكتاب (أو سورة الفاتحة)، وما الآليات التي تمكن القارئ الكريم من السباحة في هذا البحر العظيم، وبخاصة من ناحية اللغة بكل خصائصها، وما يتسنى له من مناهج قرائية تسعفه على إظهار الدلالة على نحو واضح.

الكلمات المفتاحية: سورة الفاتحة، أم الكتاب، السيمولوجية، الأسلوبية

Abstract

Surat Al-Fatiha or Umm al-Kitab is one of the surahs that many commentators have excelled in navigating in an explanation and clarification of its miracles, whether its interpretation is part of the interpretation of the entire Qur'an, (or) its interpretation alone. This reading aims at a contemplative pause with this surah, in an attempt to search for the jewels of its

connotations, and this research will follow the descriptive and analytical approach, moving away from the use of various linguistic approaches, such as structuralism, semiological, stylistic and receptive ... And other than these curricula, which focus their efforts on the linguistic discourse and the recipient, and the research hopes to reach the results that it aspires to, and among them is the clarification of some of the features of this surah that God described in his book by saying: (And we have given you seven of the Muthanni and the Great Qur'an) [Al-Hijr: 87]. We will try to clarify the meanings and connotations, the linguistic and rhetorical secrets included in the Mother of the Book (or Surat Al-Fatiha), and what mechanisms enable the noble reader to swim in this great sea, especially in terms of language with all its characteristics, and the reading methods that enable him to show the significance Clearly.

Keywords: *Surah al Fatiha, The Mother of the Book, Semiological, Structuralism*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ*مَـالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وَإِيـَّاكَنَسْتَعِينُ * اهْدِنَاالصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾

وعلينا هنا أن نتأمل العلاقة الوطيدة بين الاستعانة والهداية؛ أي يا مَن اتصفت بالوحدانية، والرحمة، واستحققت الحمد ، وكنت ربًّا للعالمين ، وملكت يوم الدين، وكنت أهلًا للعبادة، نستعين بك و بأسمائك الحسنى، وصفاتك العُلا، أن تهدينا صراطك المستقيم. فإن قلتَ: أين الوحدانية في هذا؟ قيل لك: هل تأملتَ ضمير الكاف في (إياك)، وضمير الفاعل (أنت) في (اهدنا)، وهما يصدران من مشكاة واحدة، هي مشكاة الوحدانية؟! فالمعبود والمستعان به، هو من يهدي.

والصراط المستقيم مضاد للصراط المعوج. إن الله – تعالى – أراد أن يضع منهاجًا للمسلم، منذ بداية القرآن الكريم، متمثلًا في هذا الصراط المستقيم في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأنعام : 153).

والصراط المستقيم هو الجامع لكل سبل العبادة، هو الفيض الذي يجتبي الحق له من يشاء ممن يحبهم من خلقه، هو قمة العطاء الإلهي لمن صَفَتْ نفسه، وطَهُرَ قلبُه، وشُرِحَ صدرُه، ونُقِّيَتْ سرائرُه، بل هو كمال المنِّ الألهي، والهدي الرباني.

وقد جاء الصراط المستقيم ، بعد أن تاه البشر ما تاه ، وضل في الترهات والأكاذيب الباطلة ، إذ اتبع الصراط المعوج على مدى قرون عدة ، بعد رفع المسيح – بل حتى في حياته – عليه السلام . جاء الصراط المستقيم؛ ليعلن للبشرية جمعاء ، أن ثمة صراطًا آخر واحدًا ، يجمع ولا يفرق ، يؤلِّف ولا يُنَفِّر ، من اتبعه سعد في الدنيا والآخرة ، ومن زاغ عنه هلك في الدارين .

وإذا كنا قد بينا العلاقة بين ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ﴾ والوحدانية ، فما العلاقة بين الآية الكريمة والرحمة ؟ في الحديث القدسي عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال: قال الله عز وجل: " قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله: أثنى علي عبدي. فإذا قال: مالك يوم الدين. قال: مجدني عبدي. وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل"([ii]) . فإذا تدبرنا هذا ، ألفينا أن الله تعالى ، يمنُّ على عبده بالاستجابة له لدى الاستعانة به .وأيُّ مَنٍّ بعد الصراط المستقيم ، وأية نعمة وأي عطاء ، وأي تشريف للعبد ، أن يهديه الله تعالى ، ويأخذ بيده من طرق الغي إلى طريق الرشاد. ومن المعلوم أن المستعين، من صفاته أنه يتذلل ويتضرع ، ويجأر إلى الله سبحانه وتعالى . وبعد أن يغيثه المولى عز وجل ويعطيه سؤله ، ألا يعد هذا الغيث وهذا الفضل قمة الرحمة ؟ . كيف بك إذا أغثت رجلا وانتشلته من الغرق ؟ ألم تكن قد رحمته ؟! . بلى ، وعلى هذا فقس .

أما دال (اهدنا) فقد اعتمد على زمن الاستقبال ([iii]) ، فطلب الهداية من الثوابت التي ينبغي على المؤمن ألا يتخلى عنها ؛ فالمؤمن دائمًا يرجو الله تعالى ، ويدعوه ويتوسل إليه بطلب الهداية . ومن ثم فإن الفعل (اهدنا) يقع في إطار الدوام والاستمرار أيضا ، اتساقا مع (نعبد – نستعين) .

فإن قيل : إذا كان الفعل (هَدَى) يأتي متعديًا بالجار (إلى) ، كمثل قوله تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الأنعام: 87) .

وقوله عظُمت مشيئة الله تعالى في قوله : ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (الأعراف :156) .

وقوله تعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾(الحج: 24).

وقوله تعالى :﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾(النازعات: 19) .

فما العلة من مجيئه في أم الكتاب غير متعد بـ(إلى) ؟ ([iv]) .

ويقال : إن المفعول به عندما يأتي بدون تعدي الفعل بحرف الجر ، فإن المراد من الجملة هو الحصول على كلية المفعول به ، وليس بعض جزئياته . وبيان ذلك أنه إذا قلتُ لك : أنا هديتك الطريق الموصل إلى مدينة كذا ، هذا معناه : أنني عرفتك وأرشدتك إلى الطريق الموصل للمدينة ، بكل ما فيه من سبل المواصلات ، وبكل تعرجاته، وما يمكن أن يقابلك من مشكلات ...إلخ . أما إذا قلتُ لك : أنا هديتك إلى الطريق . فمعناه أن هدايتي توقفت

عند الإرشاد والمعرفة ، وعليك أن تسير في هذا الطريق حسب قدراتك أنت : تركب ما تشاء ، وتواجه ما تواجهه وفق ما يتراءى لك .

وعليه ، فإن (الصراط) الواردة هنا ، الهدف المنشود منها ، هو الحصول عليها بكليتها ، وبأكمليتها ، وبكل تمامها . فإن قلتَ : لماذا ؟ قلتُ لك : للطائف عدة :

أولها : أن سورة الفاتحة هي أم الكتاب . ومعنى هذا ، أنها تحتوي على كل ما جاء من مضامين القرآن الكريم –كما سنرى بعد قليل– فلابد أن تبدأ بالكليات والأكمليات ، لا بالجزئيات.

وثانيها : أن الدعاء والطلب هنا موجه من العباد إلى الرب العلي . وحين يناجي العبد ربه ، عليه أن يطمع في أعلى عطاءات الرب جل في علاه وأفضلها . وعليك أن تتأمل حديث الهادي البشير صلوات ربي وتسليماته عليه ، حين يقول:"إذا سألتم الله فسألوه (فاسألوه) الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن"(٧) وأوسط يعني أعدل .

وثالثها : وهي مسببة للثانية ، أنه ما كان للعبد أن يطمع في أفضل ما عند الله ، إلا بعد أن اطمأن إلى صفات الخالق جل وعلا ؛ فهو الواحد الأحد ، الرحمن الرحيم ، المستحق للحمد ، رب العالمين ، ملك يوم الدين، المعبود بحق .

فإن قيل : إذا كان ذلك كذلك في سورة أم الكتاب ، فما القول في قوله تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الصافات : 118) ؟ قيل : هو الأمر نفسه ؛ فسيدنا موسى وسيدنا هارون من الأنبياء الذين لاقوا في دعوتهما الكثير من عنت بني إسرائيل ، وسوء أخلاقهم ، وطلبهم للكفر صراحة في قوله تعالى : ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف : 138) . وهنا منَّ الله عليهما بصراطه المستقيم بكليتها ، وهما قبل ذلك نبيان ، والأنبياء هم خير من فضلوا بعطاء الله وواسع نعمه .

وفي هذا السياق ، اقرأ قوله تعالى مخاطبًا النبي ، صلى الله عليه وسلم : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (الفتح :2) .

وأما قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت : 69) ، فالهداية هنا من الله للمجاهدين في سبيله . ولما كان الجهاد بالنفس من أعلى أنواع الجهاد ، حباهم الله سبحانه وتعالى وهداهم ومنحهم صراطه المستقيم ، على وجه الأكملية . فهذا عطاء الله ، يعطيه من يشاء من عباده .

وفي المعنى نفسه ، اقرأ قوله تعالى : ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (الفتح : 20) .

فإذا كان هذا مقبولا من جانب عطاء الله لأنبيائه ، والمقربين إليه من عباده الصالحين ، فما وجاهته في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد :10) ؟ قلتُ : تتمثل وجاهته في نكتتين :

الأولى : أنه ما كان لله –تعالى – أن يُخَيِّر بني البشر بين طريق الخير وطريق الشر ، دون أن يبين لهم تفاصيل الطريقين وكليتهما . لذا فإن تعدي (هَدَى) إلى (النجدين) بدون حرف جر ؛ يندرج تحت العلة نفسها ، معرفة بني البشر بتفاصيل طريق الخير وما يؤدي إليه ، والتحذير من طريق الشر وما يودي بصاحبه ، وترك له الاختيار ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان : 3) .

وعليك أن تتأمل قوله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (الروم : 44)، وقد جمع فيها الحق سبحانه وتعالى بين الطريقين : بداية ونهاية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (سورةالأنعام : 48 ، 49) . وغير ذلك كثير في القرآن الكريم .

والثانية : أن معرفة الإنسان بطريقي الخير والشر بكليتهما؛ بداية من الخطوة الأولى، وحتى نهاية الطريقين بالاستقرار في الجنة ، أو التهاوي في النار ، يعد حجة على الإنسان يوم العرض على الله عز وجل . ماذا يقول العاصي أو الكافر لله في الآخرة ؟ أيقول : إنني لم أعرف الحق من الباطل ، ولو أرشدتني يا مولاي لاتبعت الحق ؟ فها أنت قد عرفت الطريقين بكليتهما ؛ عرفت البدايات : إيمانا أو كفرا ، وعرفت المواصلات : اتباع الحق أو الوقوع في الباطل ، وعرفت النتائج : جنة أو نارا . والأجمل والأروع أنك اخترت بنفسك ، دونما إجبار ، قال الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة : 256) . ومن ثم، فإن الإتيان بدال (النجدين) و(السبيل) بدون جار ، جاء وفق الكلية والأكملية التي طرحتا في التأويل السابق .

وفي سبيل الكلية والأكملية ، التي تحيط بدال (الصراط) من خلال عدم التعدي بحرف الجر ، عليك أن تتامل في التعريف بـ(أل) ، الذي يضفي على الدلالة معنى التخصيص والتحديد والأكملية ، في سورة الفاتحة ، لتستمد كل الأكمليات المبثوثة في القرآن الكريم خصائصها من أكملية هذا الموضع .

فإن قيل : هل توضح لنا نموذجًا من المتعدي بحرف الجر؛ لندرك الفرق ؟ قيل : نعم . لكن قبل ذلك لنا وقفة ، تتمثل في أنه عندما يتعلق الأمر بإعطاء الخالق صراطه لعباده، يكون هذا على **وجهين** :**الأول** : إما على وجه الأكملية، مثل الأنبياء والرسل والصالحين . وهو ما نلحظه في قول الله عز وجل :﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الأنعام : 87) ؛ إذ وردت هذه الآية في سياق الحديث عن الأنبياء والرسل وهدايتهم ، وحث سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم على الاقتداء بهم . واقرأ معي : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ

* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(سورة الأنعام : 83- 90) .

وإما على وجه الإرشاد والنصح والتوجيه ، كحب الله للمؤمنين وإرشادهم إلى صراطه المستقيم . مثل قوله تعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾(سورة الحج: 24)؛ فقد سبقت هذه الآية بالحديث عن المؤمنين : يقول رب العزة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (سورة الحج : 23) .

والمؤمنون متفاوتون فيما بينهم في الاغتراف من صراط الله المستقيم ، كل حسب طاقته الإيمانية ، واستعداده النفسي . واقرأ معي قول ربنا عز وجل : ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة :233) ، وقوله سبحانه : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة :286) . فمن المؤمنين من يتميز بالجهاد في سبيل الله ، ومنهم من يتميز بالإنفاق ، ومن من يتميز بقضاء حوائج الناس ...إلخ .

والوجه **الثاني** هو الذي يتعلق بالبشر عندما يهدي بعضه بعضا إلى صراط الله المستقيم . وهنا يقول ربنا على لسان موسى – عليه السلام – مخاطبًا فرعون : ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾(سورة النازعات: 19) . ومن الطبيعي أن سيدنا موسى عليه السلام ، يرشد فرعون أولا إلى التعرف على الله عز وجل ؛ فهو الخالق وهو المعبود بحق ، دون الدخول في تفاصيل هذا الصراط المستقيم ، في بداية الأمر .

وخلاصة هذا الأمر ، أن العباد عندما يدعون ربهم ، ينبغي أن يطلبوا عطاءه على الوجه الأكمل . أما الحق سبحانه وتعالى ، فهو يفعل ما يشاء ، يعطي من يعطي على الوجه الأكمل ، ويعطي من يعطي وفق ما يتناسب مع قدرة العبد الإيمانية.

فإن قيل : إذا كنا قد عرفنا العلاقة بين دال (الصراط) والجار (إلى) من خلال تعدي الفعل (هدى) أو عدم تعديه ، فماذا تقول في اقتران (الصراط) بالجار (على) ؟ قيل : الأمر يختلف من جهتين :

الأولى : أن الجار (إلى) يعني مجرد التوجه إلى الصراط والتعرف على بداياته ؛ فإما أن يسلكه الإنسان على استقامته أو يتعسر عليه ، ويرجع هذا إلى قدرات الإنسان وطاقاته الإيمانية ومدى استعداده . أما الجار (على) فهو مأخوذ من العلو ، وكأن هذا الصراط أصبح مطية لمن يهتدي به . ولا يصل الإنسان إلى هذه المرتبة إلا بتوفيق العلي القدير له . ولك أن تقرأ هذه الآيات : يقول مولانا تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الأنعام : 39) ، وقوله تعالى :﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ

بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(سورة النحل : 76) ، وقوله تعالى مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة يسن : 1– 4) ، وكذلك قوله : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الزخرف : 43) .

وبعد أن فرغنا من تعدي الفعل (هَدَى) بغير الجر وبالجر ، وعلاقة الصراط بالجار (على) وبيَّنا تأويل ذلك، مما أفاضه الله علينا ؛ فالله بالحقيقة عليم ، ندخل الآن إلى بيان (ال) التعريف الداخلة على (الصراط) . وما أراه هنا، أن (ال) لاستغراق الجنس .

إن الإله الذي اتصف بكل تلك الصفات على وجه الكمال ، بداية من السورة إلى الدعاء في (اهدنا) ، لهو جدير بأن يُطْلَبَ منه (الصراط المستقيم) بكل أنواعها ، وأن يُتَرَجَّى وأن يُؤْمَلَ أن يعطي عبده سؤله هذا .

فالعبد الذي أقر لله بالعبودية وأفرده بها (إياك نعبد) ، وطلب منه وحده العون (إياك نستعين) ، لم يكن ليترك هذه الفرصة ، وهو في ساحة الرجاء ، وعروج الدعاء ، وأجواء الصفاء في الحضرة الإلهية ، ليس بينه وبين خالقه حجاب أو واسطة قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ . (سورة البقرة : 186) ، لم يكن ليترك تلك المنحة الربانية في أن يدعو خالقه بأن يهبه كل أنواع الصراط المستقيم : الصراط المستقيم التي تضيء له حياته الإيمانية ، الصراط المستقيم التي تهديه إلى تحصيل العلم ، الصراط المستقيم التي تأخذ بيده في تربية أولاده ؛ حتي يكونوا نافعين لدينهم ولوطنهم ، الصراط المستقيم في التعامل مع عباد الله ، فيألف المؤمن ويؤلف. الصراط المستقيم في الكسب من الحلال والابتعاد عن الحرام . والخلاصة كل أنواع الصراط المستقيم التي توصل إلى خير ، سواء في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة .

فإن قيل : صراط الله دائمًا وأبدًا مستقيم ، وهو المفهوم من قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (سورة الشورى : 52 ، 53) . وكذلك المفهوم من قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ ، إذ لا ينعم الحق – سبحانه وتعالى – على بشر إلا بأفضل شيء عنده ، وكل ما عنده فضل . إذا كان ذلك كذلك ، فما الفائدة من وصف الصراط هنا بالمستقيم ؟

قلنا : إن كل ما يصدر عن مولانا لهو الكامل الأكمل ، لكن تكمن المشكلة في الإنسان وتلقيه عن الله ، ومدى استعداده لتنفيذ مراد الخالق . والصراط هنا هي مضمون دعاء العبد ومناجاته مع خالقه . ولما كان الكمال صفة الله والنقص صفة الإنسان ، تضرع العبد إلى ربه في ساحة مناجاته بأن يهديه صراطه المستقيم في الأصل من قِبَلِ العلي ، ويرزقه هو ، أي الإنسان الاستقامة عليها . فالاستقامة هنا مطلب بشري ، يصدر من قبل الداعي ، القارئ لسورة أم الكتاب . وكأنه قيل : يا من يُفتتح باسمك كل عمل ، ويا من اتصفت بالرحمة ، واستحققت

الحمد، بربوبيتك للعالمين ، وملكت يوم الدين ، فعبدناك واستعنا بك ، اهدنا صراطك ولا تحرمنا من الاستقامة عليها .

واقرأ قوله تعالى : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة الشورى : 15) . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(سورة فصلت : 30) .وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأحقاف : 13، 14).

والخلاصة ، أنه إذا كان السياق يتناول كلام المولى عز وجل ، فاعلم أن الاستقامة ترتدي لباس الأكملية . واقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة الأحقاف : 29 ، 30) فدعوة القرآن إلى الطريق المستقيم ، لا ريب فيها أبدًا . لكن هل مثَّل هذا القرآن بدعوته طريقا مستقيما لكل مسلم ؟ ! هذه هي القضية . أعرفتَ الآن فائدة الوصف؟

وهناك رائحة ذكية تنبعث من الفعل (اهدنا) الذي يشير إلى أن الصراط المستقيم بمثابة هدية من الله لعبده. فكأن الحق سبحانه وتعالى لما عرض الأمانة / التكليف بالعبادة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان الذي لم يجبر على شيء ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(سورة البقرة : 256) ، بل أُعطي صفة التخيير ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (سورة الإنسان : 3) . و﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (سورة البلد :10) ، خشي الإنسان على نفسه الوقوع في الهاوية ، بسوء اختياره ، ولا سيما أنه علم بوحدانية الله ورحمته، وربوبيته للعالمين ، وامتلاكه هو لا غيره ليوم الدين...، فتمنَّى من خالقه أن يُتِمَّ نعمته عليه ، بأفضل هدية وبأغلى منحة ، توصل صاحبها إلى جنات عرضها السموات والأرض ، فقال : (اهدنا الصراط المستقيم) .

كما تظهر الروعة في الآداء الموجَز ، والخطاب المعجِز ، والمعنى المجمل ، والعبير المعطر ، الذي أجمل لك كل تلك المعاني ، وغيرها مما لا يصل إليه بشر ، ولا يحيط بها إلا خالق السماء والأرض ، في ثلاثة ألفاظ (اهدنا الصراط المستقيم) . علمنا الله وإياك .

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

وهنا تنتقل بنا آيات السبع المثاني من التعميم إلى التخصيص؛ فالصراط المستقيم ، قد تُعطى في الظاهر لغير الطائعين ، بل لغير العابدين لله عز وجل . ألا ترى ما يرفل فيه العالم الغربي الآن من نعم وخيرات ، وتقدم وازدهار، وما يحياه من ديمقراطية وترف العيش؟. وفي الظاهر ، أو مجازا ، يمكن أن يقال : إن هذا العالم يسير على صراط مستقيم . لكن الأمر غير ذلك ، فهم قد أخذوا بالأسباب ، فأعطاهم الله سبل الرغد في الحياة الدنيا ؛ لأن مولانا عز وجل أعطى الدنيا لمن أحب ومن لم يحب . ومن ثم غدت الدنيا جنتهم . وهذا وفق صفات الربوبية وعطاءاتها.

وإذا كان هذا على الجانب المادي ، فهم يحيون حياة ما أتعسها على الجانب المعنوي النفسي ؛ من فراغ روحي ، وقلوب خاوية ، وصدور خربة ، وتفكك اجتماعي . فهل هذه هي الصراط المستقيم ، التي يرتضيها المولى عز وجل لعبادة المجتبين ؟ بالطبع لا .

لذا لا يغرنك قوم بعدوا عن منهج الله ، وتراهم في الظاهر من السعداء ؛ لكثرة النعم ، فلربما تكون كثرة النعم إغواء وإضلالا لهم ، ومدّا لهم في الطغيان ، واقرأ معي قول الله عز وجل : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾(سورة مريم : 75). وعلى الجانب الآخر يقول ربنا :﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(سورة محمد:17). فأنت حين ترى النعمة ، عليك أن تتأمل في أحوال المنعَم عليه ؛ فإن كان مؤمنا فهي نعمة ، وإن كان غير ذلك فهي نقمة وإضلال .

ومن هنا جاء التخصيص في قوله تعالى : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ) . وهنا ننتقل من الشكل إلى الجوهر، من الخارج إلى الداخل ، من المجمل إلى المفصل ؛ فالهدف لا يكمن في الصراط المستقيم ، الذي قد يحظى به – على مستوى الظاهر – غير المؤمنين ، بل الهدف والرجاء هو صراط الله الذي ارتضاه لعبادة الصالحين ، المنْعَمِ عليهم منه جل وعلا ، الصراط التي تُسعد صاحبها في الدنيا ، وتصل به في الآخرة إلى الجنة . وتتمثل الصراط المستقيم هنا في الإسلام الذي أنعم الله به على المصطفين من خلقه .

وفي لفظ (الصراط) ثمة رغبة من العبد في الحصول على (الصراط) على الوجه الأكمل . وقلتُ لك أيضا: إن الخالق جل وعلا أنعم على رسله وأنبيائه ومن حباه من عباده المؤمنين بالصراط الكامل غير الناقص. وها هي الأكملية تتضح هنا في قوله تعالى : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ) . فَمَنِ الذين أنعم الله عليهم ؟ يجيب ربنا – بعد حديثه عن الأنبياء والمرسلين ، بداية من سورة مريم - بقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (سورة مريم : 58) . هذا هو القرآن الكريم !!!.

فإن قلتَ : إلى أي مرحلة زمنية في الماضي ، يشير الفعل (أنعمت) ، إذ لم يسبق الإسلام من مراحل إلا المرحلة الجاهلية ؟ قلتُ لك – وبالله التوفيق – :إن في هذا أمرين : إما أن يكون الصحابة ، الذين أنعم الله عليهم

بنعمة الإسلام ، وهداهم إلى صراطه المستقيم ، قبل نزول الآية الشريفة ، هم المقصودون ، أو من أنعم الله عليهم بالهداية من الأمم السابقة ، من أتباع الأنبياء والرسل ؛ فكل الديانات السابقة ، بما تحويه من تشريعات ، تدخل في إطار الإسلام . وعليك أن تقرأ قول تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة آل عمران : 19). وقوله:﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(سورة آل عمران : 67). وقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة : 128) . وقوله تعالى :﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(سورة البقرة : 131 ، 132) .وقول سيدنا سليمان : ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (سورة النمل: 31)، وقول بلقيس ردا على خطاب سليمان : ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة النمل : 44) .

فإن قيل : بأي شيء أنعم الله على المنْعَمِ عليهم ، إذ حُذِفَ المفعول به ؟ قلنا: بهدايتهم إلى الصراط المستقيم. وبهذه الهداية حَظِيَ هؤلاء بألوان النِّعَمِ كلها : ظاهرة وباطنة دنيوية وأخروية . لذا كان مضمون المفعول به مفهوما من السياق من ناحية (الهداية إلى الصراط المستقيم) ، ومتسع الدلالة من ناحية أخرى (لكل ما ينتج عن تلك الهداية) .

وفي قوله تعالى : **(غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)** نكات: **الأولى** : أنهم أهل كتاب، وقد أوتوا في البداية هذا الصراط المستقيم ، فيما نزل إليهم من تشريعات:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة المائدة : 44) . وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾(سورة المائدة : 46).

والثانية : أنهم حرفوا هذه التشريعات ، ولم يحافظوا عليها :﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة النساء : 46) . وقال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة : 30 ، 31) ، بل الأدهى من ذلك أنهم كذبوا بعضهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة البقرة : 113) .

والثالثة : أنهم يظنون أنهم على الحق : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة المائدة : 18) .

ولاستبعاد هذا التوهم جاءت هذه المنطقة من الآية الكريمة ، مستبعدة صراطهم التي يزعمون أنها الحق ، أو أنها هي الصراط المستقيم .

والرابعة : أن الصياغة اللغوية ، والسبك التركيبي جاءا على مقتضى الترتيب الزمني ، اليهود أولا ثم النصارى ثانيا ، وهما الديانتان اللتان حُرفتا قبل الإسلام .

والخامسة : أن اللعن قُرِنَ باليهود ، والضلال قُرِنَ بالنصارى ، ويعود هذا – والله أعلى وأعلم – إلى اختلاف القلوب ؛ فاليهود قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، في حين أن النصارى قد تلين قلوبهم بعض الشيء . ولك أن تقرأ قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (سورة المائدة : 82).

فإن قيل : ما علاقة قوله تعالى : (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) بالوحدانية؟ قلنا : إن هذه الآية لا تنفصل عن سابقتها﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ﴾، فهي تسير في ركابها (vi) ، ومن ثم فالوحدانية تفرض نفسها عليها، باستمرار تأثرها بالآية السابقة ، من خلال الضمير (أنت) في (اهدنا) .

أما من ناحية ارتباط هذه الآية بالرحمة ، فإذ يهدي مولانا عز وجل عبده الصراط المستقيم غير المعوج ، الذي يرتضيه لعباده الصالحين ، لا صراط اليهود المغضوب عليهم ، أو النصارى الضالين، ألا يمثل هذا أعلى درجات الرحمة، بالنجاة من النار ، والفوز بالجنة ، بل حصول السعادة في الدارين ؟ ! أهناك رحمة بعد هذا المنّ والفضل والعطاء ، والتجلي الإلهي على من كُتِبَ له السعادة من بني خلقه ؟ ! .

انظر في أرجاء المعمورة ، وتأمل كم ضال ، وكم تائه ، وكم مجرب ومنتقل من عبادة إلى عبادة ، ومن معبود إلى معبود ! والكل يريد الهداية الحقيقية ، حتى إذا رست سفينة بحثه وتفتيشه عن الحقيقة على شاطئ الإسلام سعد به ، وأدرك نعمة الله عليه ورحمته به .

فإن قيل : لماذا لحق الغضب الإلهي اليهود ، ولم يلحق النصارى ، رغم كفر الفريقين ؟ قلنا : لحق الغضب الإلهي اليهود لعلل :

أولها : أن الله –تعالى- نجى بني إسرائيل من براثن الفراعنة ، بعد أن ساموهم سوء العذاب ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(سورة البقرة : 49) .

وثانيها : انتصارهم على عدوهم وإهلاكه أمامهم دون تدخل منهم قال تعالى : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (سورة البقرة : 50) .

وثالثها : مَنُّهُ –تعالى – عليهم بألين الطعام والشراب وأعذبه ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(سورة البقرة : 57) . وقال : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(سورة البقرة :60) .

ورابعها : منحهم أكثر من فرصة للتوبة والإنابة ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة : 51 ، 52).﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة :55، 56).

وخامسها : تفضيلهم على العالمين : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(سورة البقرة : 47) ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأعراف : 140). ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الدخان :30 – 32) . وغير هذه النعم كثير .

فماذا كان موقفهم ؟ جحود ونكران ، وكفر بآيات الله ؛ فتارة يطلبون رؤية الله جهرة : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾(سورة البقرة : 55) ، وتارة أخرى يطلبون عبادة الأصنام : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(سورة الأعراف: 138) ، وتارة ثالثة يحددون آلهتم في العجل : ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾(سورة البقرة : 51) . وتارة رابعة يستبدلون الخشن من الطعام بألينه : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(سورة البقرة : 61) . وتارة خامسة يكذبون فريقا من الأنبياء ويقتلون الآخر﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ

رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾(سورة البقرة : 87) . وحتى عندما دعاهم موسى –عليه السلام – للذهاب إلى القدس وتطهيرها ، أعرضوا عنه وخالفوه : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (سورة المائدة : 24) . وغير هذه من الموبقات .

ولما كان ذلك كذلك ، ولم تحصل أية أمة من الأمم على مثل تلك النعم ، كما حصلت عليها بنو إسرائيل، باؤوا بهذا الغضب الإلهي، واستحقوه ، ليس في زمنهم فحسب، بل إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الأعراف: 167)([vii]) .

وهنا لمحة ، تتمثل في أن سورة أم الكتاب أظهرت نتيجة كفر اليهود وجحودهم بنعم الله ، وهو غضب الله عليهم ، في حين أظهرت ضلال النصارى ، دون ذكر موقف مولانا عز وجل منهم ، فلماذا ؟

نقول : إن السبب يرجع إلى ما سقناه من بيان النعم التي حظي بها بنو إسرائيل . ومع كل الآيات والبراهين التي رأوها رأي العين من معجزات مادية حسية ، وصف مولانا عز وجل قلوبهم بأنها أشد قسوة من الحجارة . يقول تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة : 74) . ولعدم الإطالة عليك أن تتتبع وتستقرأ سوء أخلاقهم المذكورة في القرآن الكريم .

وتاريخيًّا ، عليك أن تتأمل كيفية معاملتهم للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومواقفهم من دعوته وصحابته ، وتلفعهم بالنفاق خوفا من السيف . اقرأ في تاريخهم معه في المدينة ، تأمل غدرهم وخيانتهم وتأليبهم على المسلمين، تأمل تحالفهم مع المشركين ، تأمل مواقفهم من آيات الله واستهزائهم بها ... إلخ .

وفي العصر الحديث ، ألم يمثل اليهود المحرك الأساسي والداعم الأوحد لكل مشكلات المسلمين ومصائبهم ؟! ألم يعيثوا فسادًا في القدس ويقتلوا من المسلمين ما يتسنى لهم قتله ؟ ألم يخربوا معظم الدول الإسلامية أخلاقيا واقتصاديا وسياسيا ، ويقفوا ضد ثوراتها التي قامت من أجل التحرر من تبعيتهم ([viii]) . ولك أن تتخيل من سوء الأخلاق ما لا تراه عينك ، ولا يجول بخاطرك ؛ لتجده في هؤلاء القوم .

ولما كان ذلك كذلك ، جاءت النتيجة المتمثلة في الغضب ، بدلا من الاستطراد في كشف سوآتهم التي سيتناولها القرآن الكريم تفصيليا فيما بعد ، اتساقا مع الإيجاز الشديد والتركيز الدلالي التي تمثله سورة الفاتحة ، بوصفها جامعة لكل معاني القرآن الكريم ، كما سنعرف بعد قليل .

أما النصارى ، فرغم كفرهم كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(سورة المائدة : 17) .وقوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة المائدة : 72 – 73) . فقد قال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة : 82) . وحتى في التوبة تجد الحق سبحانه وتعالى يحث النصارى على التوبة ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة المائدة :74) .

وعلينا ألا ننسى أن سيدنا النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أوصى الصحابة في الهجرة الأولى ، بأن يذهبوا إلى أرض الحبشة ؛ لأن فيها ملكا عادلا لا يُظلم عنده أحد ، وقد أسلم النجاشي فيما بعد .

وكذلك فإن معظم الذين اعتنقوا الإسلام قديمًا وحديثًا ، أكثرهم من النصارى وليس من اليهود .

ويبدو أن الفرق يكمن في درجة الإيذاء والبذاءة وسوء الخلق التي يتلطخ بها اليهود ، أكثر مما عليه المشركون وأصحاب الكفر والملحدون في كل العصور. أما النصارى ، فيمكن إلى حد بعيد التعامل معهم . لذا جاء في الأولى بالنتيجة (الغضب)، وفي الثانية بالفعل (الضلال) ، رغم كفر الفريقين .

وإذا كان كل من يقرأ بفاتحة الكتاب مناجيًا ربه تعالى أن يهديه الصراط المستقيم ، صراط المنعم عليهم ، لا صراط اليهود ولا النصارى ، فإن المتوقع والمرجو والمنشود، بل والمنطقي ألَّا يسلك هؤلاء المناجون الطالبون للصراط المستقيم طريق اليهود أو النصارى ؛ إذ حذرنا مولانا من اتباعهم ابتداء من السورة الأولى للقرآن الكريم ، فاتحة الكتاب .

ولكن الواقع خلاف ذلك بكثير ؛ فقد شهد العصر الحديث اتباع كثير من المسلمين سواء على المستوى الفردي أو الدولي مسالك اليهود والنصارى ، بل والأدهى تحالفهم معهم ضد المسلمين (ix) .

ولما كانت أم الكتاب جامعة لمضامين القرآن الكريم ، فإن هذا التحذير قد ورد في ثنايا آياته الكريمة ، ومنها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(سورة المائدة:51، 52). وقوله عز وجل :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(سورة المائدة :57) .

لكن علينا أن نحمد الله – تعالى – على وصْفِ هؤلاء في الآية الثانية بمرضى القلوب ، وربْطِ إيمانهم بأداة الشرط (إن) في الآية الأخيرة التي تفيد التقليل من المضمون والشك فيه ، مما يدل على عدم وجود الإيمان لدى هؤلاء ، أوقلته إن وجد (x) .

وبالتأمل يدرك أن هـؤلاء هـم مـن صَدَقَ فيهم الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم شبرًا شبرًا وذراعًا ذراعًا حتى لو دخلوا جحر ضَبٍّ تبعتموهم . قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟" ([xi]) .

والمدهش أن كل هؤلاء يقرأون القرآن ، أو على الأقل يقرأون سورة الفاتحة التي تحذرهم من اتباع صراط اليهود والنصارى ([xii]) . فبأي منطق وبأي عقل وبأي قلب يتعامل هؤلاء مع الدين الإسلامي ، وكتابه الكريم ، وأوامر الله ونواهيه ؟!!!.

هذا هو الثبات الذي تحدثنا عنه في (نعبد – نستعين – اهدنا) . فاللهم ارزقنا الثبات على الحق في الدنيا، واجعله شاهدا لنا في الآخرة .

فإن قلتَ : لماذا وقع التحذير من اليهود والنصارى ، دون بقية البشر من الكفار والملحدين ؟ قلنا : لأمرين، **الأول** : أن هؤلاء أهل كتب سماوية ، لكنهم غالوا فيها كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (سورة النساء : 171) .

وحرفوها كما في قوله تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(سورة النساء : 46) ، وغير ذلك من الآثام والموبقات . أما بقية البشر من الكفار والملحدين ، فلم يؤمنوا من الأساس ؛ ومن ثم لا يلزم التحذير منهم لعدم اللبس .

وفي هذا إيعاذ من الله – تعالى- للمسلمين وحضٌّ منه على الحفاظ على ديننا ، والتمسك به كما في قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة : 256) . وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (سورة لقمان : 22) .وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(سورة الزخرف : 43) . وعدم التخلي عن أيٍّ من مبادئه ، أو الغلو فيه ، مثلما فعل هؤلاء .

الثاني : أن كون هؤلاء أهل كتب سماوية ، فمن السهل أن يلبِّسُوا على المسلمين دينهم ، ويشككوا في عقيدتهم ، بزعم علمهم بالأديان ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران : 78) . لذا حذر مولانا نبيه صلى الله عليه وسلم من اتباع أهوائهم وتدليسهم ، كما في قوله

تعالى : ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾(سورة المائدة : 49) .

أما الكفار والملحدون ، فليس لديهم ما يخدعون به المسلمين في شيء ؛ لأنهم لا يؤمنون بإله ؛ لذا انتفت الشركة بينهم وبين المسلمين . أي أنهم أعداء مظهرون العداوة ، وليسوا بمبطنيها . لذا جاء التحذير من اليهود والنصارى ، دون غيرهم .

وفي العصر الحديث يوجد من يقول : هؤلاء أبناء عمومتنا ، ولا يجدون غضاضة في التحالف معهم ، حتى ضد المسلمين . وكل ذلك من أجل مآرب دنيوية ، ومصالح شخصية ، لا تمت إلى الدين بصلة ، بل هي تنشأ في الأساس لمحاربة الدين الإسلامي ، ومحاولة لإضعاف المسلمين . ولم يدر هؤلاء أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم ، فهم مفضوحون ، عراة ؛ فقد نزع الحق سبحانه وتعالى عنهم ستره . ومن نُزِعَ ستر الله ، فلا يمكن له أن يُسْتَرَ ، ولو اتخذ الدنيا كلها غطاء له . فاللهم استرنا بسترك الجميل الذي سترت به نفسك فلا أحد يراك !

* * *

وبعد أن عرفنا العلاقة البنائية ، والترابط اللغوي ، والسبك المحكم ، بين الآية الافتتاحية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ، بما حوته من الوحدانية والرحمة ، وبقية الآيات في سورة السبع المثاني ، نتطرق الآن إلى العلاقة البنائية بين الآية الافتتاحية ، البسملة والقرآن الكريم بأكمله ، ثم العلاقة بين سورة الفاتحة بكلياتها والقرآن الكريم كله .

وفي إيضاح العلاقة بين البسملة والقرآن الكريم يطرح هذا السؤال : علام تشمل آية البسملة ؟ تشمل ثلاث لمحات: **الأولى** ، الافتتاح باسم الله ، **الثانية** : الوحدانية ، **الثالثة** : الرحمة .

وإذا تأملت اللمحة الأولى ، المتمثلة في الافتتاح باسم الله ، فستجد أن القرآن الكريم بـ(اسم الله) حُفظ في اللوح المحفوظ ، وبـ(اسم الله) نزل إلى الأرض ، وبـ(سم الله) اخترق قلوب ذوي الفطرة السليمة من العرب لأول وهلة ، وبـ(اسم الله) تجمعت الأفئدة الصافية ، والصدور المنشرحة ، والقلوب الحانية، حول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم . نزل باسم الله ، وقُرِئَ بـ(اسم الله) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(سورة العلق : 1) ، وهُدي به إلى صراط الله المستقيم بـ(اسم الله) ، وفُتِحت به البلاد ، واهتدى به العباد بـ(اسم الله) ، وغدا منهجًا ربانيًّا للدنيا والآخرة بـ(اسم الله) ، وعولجت به النفس البشرية بـ(اسم الله) ، وانْتُصِر به بـ(اسم الله) ...إلخ .

أما اللمحة الثانية ، المتمثلة في (الوحدانية) ، فإن القرآن الكريم يمثل أعلى مظهر من مظاهر الوحدانية . لقد افترى الكفار من أهل الكتاب ، والمشركون ، على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما افتروا ، بل تطاولوا على الذات الإلهية بما يتناسب مع سخفهم وكفرهم ، وعبدوا ما عبدوا من الأصنام والمخلوقات ، لكن ما سمعنا أن أحدا منهم ادّعى أنه صاحب هذا القرآن ، أو أنه أنزله ، أو أنه صاحب التصرف فيه . وعندما كذَبُوا على أنفسهم بأن القرآن يكتب من قبل بشر ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا

وَزُورًا*وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا* قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(سورة الفرقان: 4 – 6) . عندما فعلوا هذا ، لم يقولوا مَن الذي أعانه ، ولم يدع أحد أنه أعانه . ولو كان هناك إله آخر أو آلهة أخرى ، أنزلوا هذا الكتاب، لمَ لمْ يخبرونا بذلك ؟. وإجمالا ، فإن القرآن الكريم هو أحد الركائز الأساسية الدالة على وحدانية المولى عز وجل .

وفي اللمحة الثالثة ، وهي الرحمة المتمثلة في﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، نجد أن القرآن الكريم جاء هداية للناس ، وبـ (الرحمن الرحيم) فُصِّل القرآن الكريم تفصيلا : فمنه الأحكام والتشريع ؛ والأوامر والنواهي، وتنظيم العلاقات الإنسانية بين بني البشر، والأخبار والأنباء، وتناول الماضي والحاضر والمستقبل ، في جمال إبداعي معجز ، تعجز أمامه طاقات البشر . ألم يكن من صميم الرحمة ، أن يتناول الحق سبحانه وتعالى موضوع الرضاعة على هذا النحو المعجز؟، ألم يكن من الرحمة أن ينزع الباري فتيل الاختلاف بين الأرحام ، بوضع قانون الميراث ؟ ألم يكن من أعلى درجات الرحمة ، أن يأذن الباري جل وعلا في زواج المسلم من أربع زوجات ، درأً له عن الوقيعة في آفة الزنا ؟. وإجمالا ، ألم يخاطب المولى تبارك وتعالى نبيه قائلا :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء : 107) ؟. وبم أُرسل النبي صلى الله عليه وسلم ؟ بالقرآن والسنة المطهرة ، أليس كل هذا رحمة من الله بالخلق ؟! .

وبعد أن مدح الحق سبحانه وتعالى التوراة ، بما فيها من رحمة ، فقال : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾(سورة الأنعام : 154)، مدح القرآن الكريم من جانب الرحمة أيضا ، قائلا :﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(سورة الأنعام:155). وبهذا نؤمن بأن القرآن الكريم هو رحمة في حد ذاته، بما شمله من أحكام ،وتوجيهات ، وإرشاد ، وعقيدة ، وعبادة. أعرفت الآن العلاقة البنائية والأسلوبية المحكمة بين الآية الافتتاحية في أم الكتاب ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ، والكتاب الكريم نفسه ؟ ! .

* * *

وفي العلاقة بين صاحبة السبع المثاني والقرآن الكريم ، تبدأ الانطلاقة من قوله تعالى :﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾(سورة الحجر:87) . وبغض النظر عن ترتيب سورة (أم الكتاب) ، فإن ما ورد في هذه الآية من ترتيب ، يظهر أن سورة الفاتحة ، لا تمثل افتتاحية للأعمال المختلفة فحسب ، بل تمثل افتتاحية للقرآن الكريم ، بما تحويه من كل ما شمله القرآن الكريم من معان ، وعقيدة ، وأصول ، وتشريعات ، وأحكام ، وأسس ، ومبادئ . ولنبدأ مع السورة آية آية (xiii) .

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ . وإذا دخلنا إلى عالم القرآن الكريم ، قرأنا قول الله عز وجل :﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾(سورة النمل : 30)، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا

وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة هود : 41) . وعليك أن تتأمل أن التسمية هنا وُزِّعت على نوعي الأعمال: النظرية والتطبيقية ؛ لتعلم أنه لا يجوز الافتتاح بغيرها في شئون الحياة كلها ، نظرية كانت أو تطبيقية .

أما الآية الثانية ، فهي ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وما أكثرها في القرآن الكريم ؛ مجموعة ومفروقة . يقول مولانا تبارك وتعالى : ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة الصافات : 182) ، وقوله تبارك وتعالى :﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة الجاثية : 36).

وبالتأمل في الآية الثالثة ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، يُقرأ قوله عز من قائل : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(سورة الحشر : 22) . وغير هذا كثير .وفي معنى الآية الرابعة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، يقول رب العزة : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾(سورة الحج: 56).

وفي الآية الخامسة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، يقول تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾(سورة الزمر : 11)، وقوله تعالى :﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾(سورة الزمر : 14) . وفي الاستعانة يقول :﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ هِوَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(سورة الأعراف : 128) .

وبالتأمل في الآية السادسة ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المستَقِيمَ﴾ ، يقول تعالى عن موسى وهارون ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(سورة الصافات : 118) .

وفي السابعة والأخيرة ﴿صِراطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ ، يقول تعالى عمن أنعم عليهم بهدايتهم إلى صراطه المستقيم : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾(سورة النساء : 69) . وفي غضب الله على اليهود يقول:﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾(سورة المائدة : 60). وقوله فيهم أيضا : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(سورة البقرة : 90). وفي النصارى ، يقول : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(سورة المائدة : 77) .

* * *

ولغويًّا ، تتألف سورة السبع المثاني من ثمان وعشرين كلمة ، غير الحرف (لا) . وهو ما يتوافق مع عدد حروف اللغة العربية ، مما يدخل في إطار الإعجاز والشمولية التي تتسم بهما سورة الفاتحة .

وبالتأمل في تلك المفردات ، نجد أن الطابع الاسمي ، قد حاز على النصيب الأوفر ؛ فبينما ورد الإطار الزمني في أربعة أفعال (نعبد ، نستعين ، اهدنا ، أنعمتَ) ، تصدَّر الإطار الاسمي في أربعة وعشرين دالا . فما دلالة ذلك ؟ .

ودلالة ذلك ، أن الصيغ الإسمية تدل على ثبات الدلالة ، وإذا كانت سورة السبع المثاني اعتمدت في بنائها العام على الصيغ الاسمية ، فهذا يعني ثبات الدلالة التي حوتها تلك الصيغ . ومن هنا فإن الافتتاح باسم الله الذي يعني الوحدانية ، والرحمة ، والحمد ، والربوبية ، وامتلاك يوم الدين ، والصراط المستقيم ، لمن أنعم الله عليهم ، وإبعاد المغضوب عليهم والضالين ، لهي من الثوابت الدلالية التي ترسخ ثوابت العقيدة الإسلامية . وهذا هو الأصل؛ فلا يمكن أن تكون هذه المعاني من أسس التصور الإسلامي، وتقع في إطار المتغير. لذا كان اعتماد هذه الدلالات على الطابع الاسمي ، من أعلى درجات البلاغة والإعجاز القرآني .

فإن قلتَ : إذا كانت الصيغ الزمنية في (نعبد – نستعين – اهدنا) دلت على الاستمرار والدوام ، ومن ثم الثبوت ([xiv]) ، فما القول في صيغة الماضي (أنعمتَ) ؟ . سألتُكَ: من الذي أنعم ؟ إنه الله . وعلى من أنعم ؟ على الرسل والأنبياء والأخيار الصالحين قديمًا ، وعلى كل من مُنِحَ حب الله إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها. وبخاصة أن هؤلاء رُزِقُوا الصراط بأكمليتها واستقاموا عليها ، حتى أضيفت إليهم (صراط الذين) ، فأصبحت سجية لهم . وحاشاه سبحانه وتعالى أن يسلب نعمه من أحبابه من خلقه . ومن هنا كان الاستمرار ، وبدا الدوام ، وثبتت الدلالة للفعل (أنعمتَ) .

وصوتيًّا ، تندرج مقاطع سورة الفاتحة كلها تحت نوع المقطع الطويل المغلق بحركة طويلة ([xv]) (حيم – مين – حيم – دين – عين – قيم – لين) ، وحتى لفظ (آمين) الذي يقال تأمينا على الدعاء ، ينتهي بالمقطع نفسه (مين) . وما يزيد من جمال هذا الأداء الصوتي وروعته مظهران : **الأول** : أن الحركة الطويلة التي تتوسط الصامتين تمثلت في حركة واحدة (ياء المد) . **والثاني** : أن الصامت الثاني الموقوف عليه في القراءة تراوح بين صوتي (الميم والنون) ، وهما صوتان مجهوران متوسطان ([xvi]) .

وبالتأمل في الصوت الأول من تلك المقاطع ، نجد أن الثلاثة الأولى منها – بعدم تكرار الحاء في (حيم) الثانية – تعطينا – على الترتيب – مادة (حمد) . أما الثلاثة الثانية فتعطينا – على الترتيب أيضا – مادة (عقل).

وهنا قِفْ ، وعاود النظر ، ثم تأمل ، وارجع البصر ، واربط بين المادتين – سواء على المستوى الاسمي أو الفعلي– لترى العجب العجاب ، والإعجاز المبين ؛ فحمدُ الله لا يصدر إلا عن عاقل ، فَهِمَ نعمة العقل التي منحها الله إياه، والدور الذي من أجله وَهَبَ الله الإنسان تلك النعمة. وصدق القدير إذ يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(سورة الإسراء : 70). وما كان التفضيل إلا بالعقل .

ثم عاود التأمل ؛ لتدرك أن المادة الأولى (حمد) هي من بدأت بها سورة الفاتحة (الحمد لله) ، متبعة ذلك بمبررات الحمد (رب العالمين – رحمن رحيم – مالك يوم الدين). والمادة الثانية (عقل) هي من اتصف به العابد لله (إياك نعبد) ، المستعين به (وإياك نستعين) ، الطالب لصراط ربه ، الراجي الاستقامة عليها (اهدنا الصراط المستقيم)، الرافض لغيرها ، من باب إعمال العقل ، والتدبر ، وحسن الفهم (صراط الذين أنعمت عليهم ...) . فأي ترتيب ، وأية روعة ، وأي تناسق ، وأي إعجاز ، وأي بهاء هذا ؟!!! . حقًّا ﴿إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة الشعراء : 192) .

أتأملتَ هذا العطاء الإلهي ، والمنْحَ الرباني ؟ . فما أحلى وأبهى أن يحمد العبد ربه على نعمة الإسلام ، حمدا نظريا : بالروح والفؤاد واللسان وكل الجوارح ، تطبيقا : بالتحلي بمكارم الأخلاق كلها ؛ العطاء ، والبذل ، والإصلاح ، والمشاركة الفعالة في المجتمع المسلم!.

ثم ما أروع أن يتدبر الإنسان هذا التنزيل ، ويعقل ما فيه ، ويفهم مراد الله . وعليك أن تقرأ ما ورد من آيات في جانب التعقل والتدبر :﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(سورة النساء : 82)، و﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(سورة العنكبوت : 43) . و﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة يسن : 68) ، و﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد : 24) !! .

وكما تأملتَ في الصوت الأول لتلك المقاطع ، عليك أن تتأمل الصوت الأخير ؛ لتدرك أن صوت (النون) يضاعف صوت (الميم) – إذا استبعدنا مقطع (حيم) لعدم التكرار- وبهذا التضعيف نحصل على مادة (مَنَّ) ، التي من معانيها الإنعام والتفضل والعطاء . واقرأ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة آل عمران : 164) ، وقوله جل في علاه : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾(سورة طه : 37) ، وقوله عز من قائل :﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (سورة الصافات : 114) ...إلخ .

والإنعام الإلهي ، والعطاء الرباني ، والتفضل الممنوح من الرب العلي إلى من حظي بالمحبة الإلهية ، المستنتج من الصوت الأخير لتلك المقاطع له تأويلان: الأول خاص ، والثاني عام . أما الخاص – أي في سورة السبع المثاني - فينسحب على المستنتَج من الصوت الأول لتلك المقاطع ، المتمثل في ثنائية (الحمد – العقل) ؛ بمعنى أنه من أراد الله سبحانه وتعالى أن يمُنَّ عليه ، ويمده بمدده الذي لا ينقطع ، ويفيض عليه بوافر عطائه الذي لا ينضب ، يهبه نعمة العقل مقرونا بنعمة الحمد . وأي فضل وأي عطاء وأي إنعام بعد هذا ؟!!!! .

ويتمثل التأويل العام في أن الدين الإسلامي كله بكتابه المبين، ونبيه العربي الأمين، يعد منًّا وتفضلا وعطاء ونعمة من الله عز وجل لمن عقل ذلك من البشرية جمعاء . واقرأ معي قول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة الحجرات : 17).

وقوله :﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة آل عمران :164) .

وبهذين التأويلين يمكن أن نقول : إن سورة الفاتحة أوضحت لنا منذ البداية أن أفضل ما أنعم به مولانا على بني البشر هو العقل ، ثم حبا منهم من حبا فوهبه نعمة الحمد، وقد خرج الاثنان من بوتقة الإنعام والتفضل ؛ لتكتمل دائرة العطاء بالهداية الى الصراط المستقيم ، المتمثل في الدين الإسلامي .

والمتأمل يدرك أن كل هذه المعاني هي التي فصلها القرآن الكريم في التوجهات المتنوعة والمتعددة لخطابه المبارك، الموجه إلى طوائف البشر كلهم. ولما كان ذلك كذلك ، حُقَّ لسورة الفاتحة أن تسمى بأُمِّ الكتاب .

خاتمة البحث :

وعلى هذا النحو ، بدت لنا سورة الفاتحة . وهذا التأويل الذي طرحناه قد أكد لنا المقولة التاريخية التي حفرت في وعينا والتي تقول بأن (القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان) ؛ فلا تنتهي عجائبه ، ولا ينضب إعجازه ، ولا تمل قراءته ، ولا تتوقف مسيرة تأويله ، إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها . لذا ينبغي على المسلمين أن يهتموا بكتابهم دراسة وتطبيقا ، إذًا أرادوا أن يستعيدوا مجدهم وحضارتهم .

وإن بالتأمل يدرك أن آيات سورة السبع المثاني اعتمدت على الإيجاز الصياغي ؛ فهي جمل ذات تكثيف دلالي ؛ لا تدخل في تفاصيل ، بوصفها شاملة لكل معاني القرآن الكريم ، وكليات التصور الإسلامي ؛ من عقيدة وتشريع ومعاملات وعبادات وغيرها ، فضلا عن نهاية فواصلها بحركة السكون . وهذا كله يتناسب مع سمات السور المكية ، التي تأخذ بالألباب .

والافتتاح بالتسمية بـ(اسم الله) ، التي تلازم العبد منذ تكليفه حتى رحيله عن هذه الحياة الدنيا .

وورود لفظ الجلالة (الله) الذي يحمل كل سمات الألوهية، ثم لفظ (رب) ، الذي يحمل كل سمات الربوبية ، ثم ورود الاسمين الحسنيين (الرحمن الرحيم) ، والتنوع الصرفي بينهما ، إشارة إلى انبثاق كل صفات الجمال والجلال من سمة الرحمة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ (سورة الأعراف : 156) .

وعلى هذا يعيش قارئ سورة الفاتحة – عند قراءتها – أجواء ونفحات إلهية ربانية مضاءة بأنوار الرحمة ، ليعلم كل من أراد أن يعلم ، أن مولانا جل في علاه ما أراد لعباده إلا كل خير ؛ فهو غني عن عذابهم ، وهم فقراء إلى رحمته ..

وقد حددت سورة السبع المثاني العلاقة بين الإنسان وخالقة : لفظ الجلالة (الله) الذي يشع بالهيبة والأخذ، ثم العبادة والاستعانة ، ثم الانتماء للجماعة الإسلامية ، لا المغضوب عليهم ولا الضالين .

والأسماء والضمائر التي تدل على الرب العلي ، فاقت بكثير ما حل فيه العباد – لغويا – من هذه الأسماء وتلك الضمائر. وقد جاءت كلها في صيغة المفرد ؛ للدلالة على التفرد والوحدانية . فعلى المستوى الأسمي ثَمَّ (الله

— الرحمن مرتين — الرحيم مرتين — رب — مالك) ، ثُمَّ الضمائر (الكاف في إياك مرتين — الفاعل في اهدنا — وتاء الفاعل في انعمتَ) .

وأما العباد فقد حلوا في اسم واحد (العالمين) ؛ لأن كل العالمين : عالم الإنس وعالم الجن وعالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد ...إلخ عباد لله سبحانه وتعالى . ثم تفرع هذا الاسم في سورة الفاتحة ؛ فيما يخص عالم الإنس إلى ثلاثة أنواع : المسلمين ، والمغضوب عليهم/ اليهود ، والنصارى/ الضالين . وهم أشهر الديانات السماوية. وفي منطقة الضمير، ورد العباد في فاعل (نعبد ونستعين) ، ثم المفعول به في (اهدنا) .

وبهذه الغلبة الإلهية — أسماء وضمائر — كأن الحق سبحانه وتعالى ينادي على الخلق ، بداية من أولى سور كتابه العزيز : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(طه : 14) . فمن استمع وفهم مراد الله نجا ، ومن خالف حُرِمَ . وهذا كله إضافة إلى العلاقة التي بيناها بين (الحمد والعقل) في التأويل السابق . ماذا أقول إلا سبحان الواحد الأحد ، سبحان الفرد الصمد ، سبحان من لا والد له ولا ولد !!!! .

ومن هنا يمكن القول : إن سورة الفاتحة ، قد تجلى فيها الإعجاز اللغوي ، على أعلى درجة من النضج والازدهار ؛ إذ اعتمدت السورة لحمة لغوية ، ذات تماسك بنائي ، وحبك أسلوبي ، سواء على مستوى الإفراد ، أو التركيب ، جعلتها بحق — أي هذه اللحمة – مركزًا ، ومَعِيْنًا لكليات التصور الإسلامي ، وأسس العقيدة ، لهذا الدين الحنيف ، الذي لا يزيغ عنه إلَّا هالك ([xvii]) .

أهم نتائج البحث :

وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية :

أولا: أن هذا البحث استطاع أن يربط — من خلال هذه القراءة التأويلية – بين المضامين التي حملت بها أم الكتاب وبين الواقع الحديث الذي نعايشه . وفي رأيي أن هذا المسلك يمثل أفضل المسالك في أي قراءة لكتاب الله عز وجل ؛ فلا ينبغي على القارئ المؤول أن يفصل بين قراءته والعصر الذي يحياه .

وثانيًا: قد أثبت البحث أنه لا غضاضة في أن يُستعان في أي تفسير أو تأويل للقرآن الكريم بالمناهج اللغوية الحديثة ، ما دامت تصلح لإبراز المعنى القرآني في غير شطط أو خروج عن العرف اللغوي . وهذا ما بدا جليا في الاستعانة بالمقاطع الصوتية ؛ لإظهار الإعجاز القرآني في هذا الجانب . وكذلك ما طرحه هذا التأويل من الربط الدلالي بين الآية الأولى في أم الكتاب (البسملة) وبين مضامين السورة بأكملها . ثم إظهار العلاقة الترابطية بين آية البسملة والقرآن الكريم كله . وهذا هو ما يتبناه المنهج البنيوي في ربط الأجزاء بالكليات .

وثالثًا: أن القارئ المتلقي استطاع في هذا التأويل أن يجمع بين تاريخ التلقي الأول لسورة الفاتحة — وبخاصة في بناء البسملة على مضمون الرحمة – والتلقي المعاصر لها ، وذلك بربط الدلالة بالواقع المعيش . وهذا المبدأ (الربط بين الجمال والتاريخ) هو أحد المبادئ التي تأسست عليها نظرية التلقي .

ورابعًا: أنه لا ينبغي لمن يتصدى لتأويل كتاب الله عز وجل دخول هذا المعترك ، إلَّا بالتسلح بآليات تمكنه من السباحة في هذا الخضم العظيم ، ولا سيما اللغة بكل خصائصها ، وما يتسنى له من مناهج قرائية تسعفه على إظهار الدلالة على نحو واضح.

أهم المصادر والمراجع :

- البخاري : الصحيح ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثالثة ،1411 هـ - 1990م ، ومحمد فؤاد عبدالباقي ، المكتبة السلفية .
- الترمذي : السنن ، تعليق : محمد ناصر الألباني ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى، بدون تاريخ .
- أبو داود : السنن ، تحقيق وضبط : شعيب الأرنؤوط ، دار الرسالة العالمية ، الطبعة الأولى 1430هـ - 2009م .
- الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – بيروت ، الطبعة الثانية 1972م .
- الزمخشري : الكشاف ، تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان – الرياض ، الطبعة الأولى 1418هـ - 1998م .
- السيوطي : الإتقان في علوم القرآن : تحقيق : شعيب الإرنؤوط ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الأولى 2008م .
- الطبري : جامع البيان في تأويل آي القرآن ، هذبه وحققه وضبط نصه ، وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف ، وعصام فارس الحرستاني ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الأولى 1415 هـ - 1994م .
- ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر- تونس ، 1884م .
- عبيد بن الأبرص ، ديوانه ، دار الكتاب العربي ، بيروت، الطبعة الأولى 1994م.
- ابن ماجه : السنن ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية .
- النسائي : السنن ، قدم له الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1421 هـ - 2001م .
- مسلم : الصحيح ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1991م .
- ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .

الهوامش :

[ii] البخاري ، كتاب (خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل) ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة الثالثة ،1411 هـ – 1990 م : 27 ، 28 . صحيح مسلم ، كتاب (الصلاة) ، برقم : 395 . سنن أبي داود ، (كتاب الصلاة) : برقم 821 . سنن النسائي ، الجزء الأول ، ذكر الإمامة والجماعة ، برقم : 983 .

[iii] للأمر صور ثلاث تبعا للمتكلم والمخاطب : فإذا كان المتكلم أعلى مرتبة من المخاطب ، كان غرضه الأمر . وإذا كان المتكلم أدنى من المخاطب ، كان الغرض رجاء ودعاء ، وإذا تساووا في المرتبة ، كان الغرض التماسا .

[iv] لأن إعراب الآية الكريمة هكذا : (اهدنا) فعل أمر بمعنى الدعاء ؛ فهو موجه من العبد إلى المعبود ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت) عائد على الرب العلي ، و(نا) مفعول به أول ، (الصراط) مفعول به ثان ، أو منصوب على نزع الخافض –كما يقول محي الدين الدرويش – ؛ لأن الفعل (هدى) لا يتعدى إلى إلى مفعول به واحد ، ويتعدى إلى المفعول به الثاني باللام كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى : 52) . يُنظر : إعراب القرآن وبيانه ، دار الإرشاد ، سوريا – حمص ، الطبعة الثالثة ، 1412هـ – 1992م ، المجلد الأول : 14 ، 15 .

[v] صحيح البخاري ، كتاب (الجهاد والسير) ، باب (درجات المجاهدين في سبيل الله) ، برقم : 2790. الترمذي ، كتاب (صفة الجنة) ، باب (ما جاء في صفة درجات الجنة) ، برقم : 2530 .

[vi] وقد تولَّد هذا الترابط والتلاحم من الناحية التركيبية ؛ فـ (صراط) الثانية ، بدل من (الصراط) الأولى ، والذين مضاف إليه ، وجملة (أنعمت) لا محل لها من الإعراب / أي تسير في ركاب الموصول ، و(غير) صفة (للذين) ، أو بدل منه . وما بعدها مضاف إليه ، وجار ومجرور ومعطوف . وعلى هذا، فالآيتان تعدان لحمة لغوية واحدة .

[vii] لكل هذا – ولغيره كثير – كانت قصة بني إسرائيل من أكثر القصص مثولا في القرآن الكريم . ومن المعجز أنها وردت على شكل لقطات في سور متفرقة ، وبالتجميع تتبين لك خيوط القصة كاملة ، وتستطيع أن تتمثل دروسها وعبرها .

[viii] كانت إسرائيل أولى الدول الداعمة بشدة للانقلاب العسكري في مصر عام 2013م . وأولى الدول الداعمة للمدعو بشار الأسد صاحب أكبر مجازر تعرض لها الشعب السوري ، بداية من 2011م .

[ix] وإن كان هذا قد حدث منذ زمن بعيد ، على المستوى الفردي في الحروب الصليبية مثلا أو الغزو التتري والمغولي لبلاد المسلمين ، من ظهور بعض الخيانات هنا أو هناك ، فقد زاد هذا التحالف واشتدت الحميمية على مستوى الدولة ككل ، قبيل سقوط الخلافة العثمانية ، ثم قيام الكيان الصهيوني ، وما شهده العالم الإسلامي من ارتماء كثير من حكامه في أحضان اليهود والنصارى . وهو ما انكشفت نتائجه في الارتداد على الربيع العربي في بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين ، وما شهدته المنطقة العربية من مجاذر ومذابح جماعية ، محركها وباعثها الأول والأخير هم اليهود والنصارى ، بأيدي الخونة من الحكام العرب ومعاونيهم من الداخل .

[x] صحيح البخاري ، كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) ، باب (قول النبي لتتبعن سنن من قبلكم)، برقم : 7320 . صحيح مسلم ، كتاب (العلم) ، باب (اتباع سنن اليهود والنصارى) ، برقم : 2669.

[xi] منذ سقوط الخلافة العثمانية ، والحكام المسلمون يأتون بأعمال كُفرية ؛ فهدم المساجد وتمزيق المصاحف ومحاولة تغيير لغة القرآن ، ومحاربة الإسلام ، واعتقال المسلمين ، واغتصاب نسائهم ، وإسالة دمائهم ، وطردهم وسحلهم ، وإحراق المساجد .... وكل ما ارْتُكِبَ على أيدي الحكام العرب بداية من خمسينيات القرن العشرين ، حتى مناهضي الربيع العربي ، لمن الأعمال الكفرية . وجدير بالذكر أن بعض العلماء كفَّروا هؤلاء الحكام وأجزموا بردتهم .

[xii] وهناك كثير من علماء الأزهر والدين في البلاد العربية من نظَّر لهذا الفساد وباركه وبايعه وحلله.

[xiii] نكتفي بنموذج واحد لكل موضوع خشية الإطالة .

[xiv] بيَّنا في موضعه دلالة الأزمنة (نعبد – نستعين – اهدنا) على الدوام والاستمرار ، وهو ما يكسبها ثبات الدلالة كذلك .

[xv] وتنقسم المقاطع في اللغة العربية إلى خمسة أنواع : **الأول**: مقطع قصير مفتوح (صوت صامت + حركة قصيرة /مَ) . والصوت الصامت هو أحد أصوات اللغة العربية ، بخلاف (الألف والواو والياء) في حالة المد . أما الحركة القصيرة ، فهي الكسرة والضمة والفتحة . والحركة الطويلة هي (الألف والواو والياء) في حالة المد . **والثاني**: مقطع طويل مفتوح (صوت صامت + حركة طويلة / في) .**والثالث**: مقطع طويل مغلق بحركة قصيرة (صوت صامت + حركة

قصيرة + صوت صامت/ عَنْ ، مِنْ ، هَلْ) .و**الرابع**: مقطع طويل مغلق بحركة طويلة (صوت صامت + حركة طويلة + صوت صامت /بَابْ في حالة الوقف على الباء). و**الخامس**: مقطع زائد في الطول (صوت صامت + حركة قصيرة + صوت صامت+ صوت صامت / بِنْتْ في حالة الوقف) .

[xvi] وتندرج أصوات العربية كلها تحت ثلاث صفات : الجهر والهمس ، والشدة والرخاوة ، والتوسط . ولما كان هذان الصوتان يجتمعان في خصيصتين (الجهر – التوسط) ، كان لهما أبلغ الأثر في الجانب الصوتي لسورة أم الكتاب . وكان هذا الجانب التنغيمي ردًّا إعجازيًّا على ما برعت فيه العرب في فن الشعر من الجانب الصوتي؛ وبخاصة في منطقة القافية. وهناك دراسات من الكثرة بمكان في هذا المجال ، على المتلقي الكريم الرجوع إليها . لكن أردت ألا نعدم الإشارة إلى الجانب الصوتي في هذا التأويل .

[xvii] هناك نقاط عدة ، مثل : هل البسملة آية من الفاتحة أم لا ، وهل هي آية من كل سورة أم لا ، وهل سورة الفاتحة مكية أم مدنية ، وتفسير قوله آمين . كما أن هناك مناطق لغوية وبلاغية أخرى في سورة الفاتحة ؛ مثل بنية الالتفات ، والاشتقاق ، والتقديم والتأخير . غير أنني لست بصدد تأويل هذه العناصر ؛ فقد امتلأت بها جل التفاسير القرآنية ، وعالجتها معالجة طيبة ، وما يعنينا في هذا التأويل هو إظهار الإشعاعات اللغوية ، والدلالات المتعددة ، والمعاني المستنتَجة من التأمل في أي الذكر الحكيم ، إضافة إلى إبراز التماسك البنيوي من خلال التجليات الأسلوبية للمقاطع القرآنية . ودور كل هذا في إنتاج الدلالة القرآنية ، وإيضاحها .